

تاريخ الاستلام: 2022/09/13 تاريخ القبول: 2022/12/07 تاريخ النشر: 2022/12/31

سميحة بلام*
جامعة الاخوي منتوري - قسنطينة (الجزائر)
Email : samihaammarb@gmail.com

الملخص:

تسعى هذه الورقة البحثية إلى تركيز الاهتمام على أهم خاصية اعتمدها أبو القاسم سعد الله في دراسته لتاريخ الأدب الجزائري، حيث ستوضح رؤيته لموضوعه من خلال الكشف عن كيفية اعتماده التحقيب الذي يقتضي التبع الزمني للظاهرة الأدبية، وتقسيمها إلى مراحل وفهمها على ضوء من التغير السياسي الذي يلمح لإشراقها وازدهارها في رقيه، وانحطاطها وضمحلها في تدهور أحواله وسوء وضعه مما يفرز أهم مشكلة قد تواجه المؤرخ الأدبي المتبني للتحقيب السياسي في عملياته التاريخية، حيث يمتزج التاريخي بالأدبي ويدوب فيه، فيصعب بعدها إقامة الحدود بينهما. ولعل هذا ما يوقع المهتم بكتابات سعد الله في حيرة كبيرة، فلا تكاد تطالعنا صورة سعد الله المؤرخ الأديب إلا ومعها صورة الناقد المتمكن، والمحقق الخبير، والمثقف الموسوعي العارف بكل الأحوال السياسية، والأوضاع الاجتماعية والثقافية، والخصائص الفنية، التي تعينه على تحديد العصور الأدبية والمدارس الفنية.

كلمات مفتاحية: أبو القاسم سعد الله، التأريخ الأدبي، التحقيب السياسي، التحقيب الفني.

Abstract:

In this article, we try to search in the writings of the critic and historian Abu al-Qasim SaadAllah about the features of the periodization, as it is one of the procedures of the historical method. And we are looking for manifestations of his chronological tracking of the literary phenomenon, and how he divided it into specific stages with temporal milestones. Taking into account political changes and their impact on the prosperity or decline of literature.

It is difficult to understand the differences between what is literary and what is historical in Saadallah's studies of the history of Algerian literature, whether in his book "The Cultural History of Algeria" or in other works that preceded it.

Keywords: Abu al-Qasim SaadAllah, periodization, Algerian literature, The Cultural History.

المقدمة

شاع استخدام المنهج التاريخي كوسيلة إجرائية عالية الكفاءة اعتمدها مؤرخو الأدب في جمع التراث الأدبي، وحفظه بما حواه مصطلح الأدب من دلالة واسعة تستدعي الإحاطة به وعي بالزمن، ومتغيراته مما يعين على وضع معالم البداية والنهاية التي تصنع الحقب التي يبحث فيها مؤرخ الأدب عن رؤية واضحة لموضوعه من خلال تقطيعه إلى شرائح، وتقسيمه إلى مراحل زمنية، أو وحدات موضوعية تجتمع في حقبة معينة تشيّد وتأطر الموضوع بإبراز تضاريسه المختلفة، التي تحددها وجود صفات مشتركة بين عدد من المثقفين، و الأدباء والشعراء، ينتشرون على مدد زمني قد يطول أو يقصر، ويتقيدون بحيز مكاني يستدعيه الدافع القومي والانتماء الهوياتي والكيان الملكي، أو القبلي.

هذا الإجراء الذي عده البعض سليل الدراسات الغربية، تعددت وجوهه وصيغته في الدراسات التاريخية العربية؛ حيث انساق له كل مهتم بالتراث الأدبي والثقافي، مشرقيا كان أو مغاربيا. الأمر الذي جعلنا نلح على رصد الممارسة التحقيقية لدى أبي القاسم سعد الله، رائد وشيخ المدرسة التاريخية الجزائرية المنوطة بحُرقة قلمه على بعث تراث بلده، من خلال موسوعته "تاريخ الجزائر الثقافي" ولمّ جميع شتاته الأدبي، بحسب تشابجه العائلي أو انتمائه الزمني، مستعينا في ذلك بتقنية التحقيب. فما هو التحقيب؟ وكيف مارسه سعد الله كإجراء من إجراءات المنهج التاريخي في دراسته لأدب الجزائر عبر العصور؟.

1. أبو القاسم سعد الله حياته واتجاهه الفكري:

أبو القاسم سعد الله الرجل الموسوعي المتشعب العطاء بتأليفه، وتصانيفه المتعددة والمتنوعة، المتشعبة بين التاريخ والأدب. من مواليد 1930م بضاحية البدوع في قمار إحدى بلدات وادي سوف. ينحدر من عائلة فقيرة ومدينة، تحاول أن تعيش

بوسائلها الفلاحية البسيطة. كان أفرادها عند ولادته لا يفترشون سوى الرمال، ولا تظلمهم غير سقائف من جريد النخل. "فكان هو كذلك عند خروجه إلى الدنيا، وطاؤه الأرض وغطاؤه السماء." (سعد الله، أفكار جامعة، 1988، ص 177) لقد تربى سعد الله في "بيئة بدوية صحراوية، واحاتها مفتوحة للرمال... وهوؤها طلق،" (وزناجي، 2008، ص 18) غرست فيه صفاء الذهن، وحب العزلة، والصراحة والبساطة. وزاد محيطه في قمار العالمة المتشعبة بالدين من توثيق علاقة الفتى سعد الله بالعلم الشرعي والثقافة والأدب، فهي "بلدة العلم والزهد والتصوف." (سعد الله، أفكار جامعة، 1988، ص 154) مما ساهم في بناء شخصيته وتشكل وعيه وتحديد اتجاهه الفكري، خاصة وأن له روابط قرابة ببعض مثقفيها ورجالات العلم فيها، أمثال: محمد الطاهر التليلي والحفناوي هالي، الذين كان لهما دور في إقناع والده على مواصلة تعليمه، إلى جانب إصرار والدته التي أشاد بفضلها في قوله: "وقفت والدتي ورائي في حفظ القرآن الكريم في جامع البدوع بقمار، ثم الدراسة في جامع الزيتونة بتونس أسوة بأخيها (خالي) لأكون مثله عالما محترما، معتقدة أن الله قد فتح عليها "القدري" (ليلة القدر)، وأنا طفل، فلم تطلب من الله شيئا غير العلم الشريف، وهي التي رسخت في هذه الفكرة، حتى عشت بها كل حياتي، معتقدا في قرارة نفسي أنني رجل "قدري"، وأن الله قد اختارني لمهمة وهي خدمة العلم الشريف (الدراسة والبحث)، وأني لم أخلق لغير هذه المهمة. وقد طغت عليّ هذه الفكرة، حتى إذا حدثتني نفسي بتغيير مساري، راودني (القدري)، وحضرت أمامي والدتي وصورتها فأعود إلى مساري وقدري." وفي سن الخامسة التحق أبو القاسم سعد الله بجامع القرية لحفظ القرآن الكريم الذي استمر معه حوالي ست سنوات ظل حفظه، ورفاقه فيها مضطربا بسبب التبدل الدائم للمعلمين، إلى أن استقر تعليمهم على يد شيخه أبو القاسم بن البرية، الذي كان له من الوقت متسعا

لاكتشاف قدرات تلاميذه، حيث استطاع سعد الله حفظه وختمه ثلاث مرات في مدة سنتين متتاليتين (1944-1946م) (عبيد، 2014، ص131).

وبذلك القدر اليسير من العلم الذي منحته بلدته الصغيرة بواد سوف، انتقل الشاب القُماري إلى تونس التي "أدخلته عالم الحواضر بما فيها من تناقضات." (سعد الله، أفكار جامعة، 1988، ص178) وتفتحت معارفه بمخالطته لأبناء وطنه، "ذلك أن التقاء الطلاب الجزائريين من كل أنحاء القطر على صعيد واحد، وعلى اختلاف مشاربهم وانتماءاتهم الحزبية، كان يمثل له اعتقا من قوقعته المحلية التي فرضها عليه النظام العسكري الفرنسي في الواحات." (وزناحي، 2008، ص29) وصار ينافس أقرانه على المراكز الأولى في التحصيل العلمي، ويشيد به أساتذته ويقدمونه على غيره، أمثال: علي الأصرم ومصطفى المؤدب. ليتحصل على شهادتي الأهلية في عام 1951م، ثم التحصيل عام 1954م. وفي تونس توطدت علاقاته العلمية والأدبية. وعرفت مقطوعاته الشعرية، وأولى تجاربه القصصية ومقالاته النقدية طريقها للنشر في صحف النهضة والأسبوع التونسيين والبصائر وصوت الجزائر.

وبعد ست سنوات قضاهها سعد الله في تونس عاد إلى الجزائر ليشغل معلما لمدة عام، جمع خلالها بعض المال الذي يمكنه من تحقيق حلمه في استكمال دراسته بالمشرق، حيث ثم قبوله طالبا بدار العلوم عام 1955م. وكانت القاهرة وقتها "مركز إشعاع فكري وسياسي، جعلته يؤمن بوحدة التاريخ والمصير العربي، كما عرفته بشرائح الأدب فاختلط بها وناقش ونشر واكتشف ذاته بين الذوات الأخرى." (سعد الله، أفكار جامعة، 1988، ص178) وتمكن من الاطلاع والاحتكاك بكثير من فروع المعرفة التي طالما سمع أو قرأ عنها أثناء تواجده بالزيتونة؛ فقد وجد لنفسه حضورا بين عمالقة الأدب والنقد العربي، أمثال عمر الدسوقي ومُجد غنيمي هلال، في زمن انتعاش المنهج التاريخي. كما تهيأت له فرصة متابعة إنتاج طه حسين عن طريق المواظبة على قراءة

مجلة الآداب البيروتية، والاطلاع على مجلته "صوت باريس" وقراءة كتابه "حديث الشعر والنثر" والاستماع لمحاضراته "الاتجاهات الأدبية المعاصرة". كما كان لكتابات مُحمَّد مندور أثرها البارز في ترسيخ معارفه بالمنهج التاريخي (مبادئه، أسسه، خطواته)، لقد كانت طبيعة الدروس التي تفرضها دار العلوم تلزمه بقراءة كتب في النقد الأدبي وتاريخ الأدب على نحو: "أصول النقد الأدبي" لأحمد الشايب، "قواعد النقد الأدبي"، فنون الأدب"، الأدب العربي في مصر"، "الشعر الأندلسي" تحقيق مُحمَّد مؤنس، "فن الشعر" لإحسان عباس، "مناهج البحث في اللغة"... وغيرها. (سعد الله، مسار قلم، 2005، ص 34، 229) وكانت ثمرة هذا التيار المعرفي الذي واكبه سعد الله هي رسالته التي قدمها لنيل درجة الماجستير في النقد الأدبي حول شعر مُحمَّد العيد آل خليفة.

استطاع سعد الله أن يتجاوز العراقيل التي ألفتها وألفها في كل مرة يُقبل فيها على تقديم ملفه لاستكمال دراسته، بعد أن قوبل ملفه بالفرض، على اعتبار أنه غير مؤهل للدراسة بإحدى الدول الأجنبية. الأمر الذي أحدث صدمة لدى الطلاب بفرع القاهرة، وهو الذي يعد في نظرهم من الكفاءات العلمية غير المتوقع رفض ملفها. وبعد الضجة التي أثارت حول توزيع المنح التعليمية، وتحرك عبد الحميد مهري، ومخابرات عبد الحفيظ بوصوف لاحتواء الوضع، وإرضاء الطلبة الذين كانوا يدرسون باللغة العربية، تمَّ قبول سعد الله في وجهة علمية جديدة نحو أمريكا. ورغم حبه للأدب والرغبة للتعلم فيه والاستفادة من الآداب الأجنبية، فقد وجد نفسه يميل إلى التخصص في التاريخ والعلوم السياسية، مما جعله "يكتسي طابع التطور في نوعية الاختصاص ومواضيع الاهتمام، فقد دخل الحياة الثقافية أديبا لينتهي به الأمر مؤرخا" (سعيدوني، دت، ص 13)، كل ذلك سيغذي ذائقته في التأريخ للأدب الجزائري من خلال المعارف التي تفتحت أمامه في جامعة منيسوتا، والتي لن تحول دون مواصلة سعيه

الدُّوَّب لأجل تحقيق هدفه الأسمى وهو كتابة تاريخ الجزائر الثقافي، بقدر ما تمكنه أيضا من إتقان النقد التاريخي وتطبيق مناهجه. وهو الواقع الذي سيدفعنا لاستطلاع مدى تحكمه في الإجراء التحقيقي، باعتباره إحدى أهم فنيات النقد التاريخي. والبحث عن ماهية التحقيب الذي نرمي إليه هنا؟ وكيف مارسه سعد الله في تأريخه للثقافة والأدب الجزائري؟ وهل كان واعيا بممارساته المنهجية؟

تعريف التحقيب:

يُعرَّف التحقيب في المعاجم والقواميس اللغوية على أنه مشتق من الجذر "حقب"، والحقبة من الدهر مدَّة لا وقت لها ^{الحَقْبَةُ بالكسر السَّنة، والجم مع حَقْبٍ وَحُوبٌ.} والحَقْبُ والحَقُّبُ: ثمانون سنة، وقيل أكثر من ذلك ^{وَجَمَعَ الحَقُّبُ حَقَابًا، والحَقُّبُ} الدهر، والأحقاب الدُّهُور، والحَقُّبُ السَّنة. (منظور، 1419هـ-1999م، ص253).

وقد ورد لفظ الحقبة في القرآن الكريم واختلف في تحديد مقداره، ففي قوله تعالى {لا تبين فيها أحقابا} فقليل: ما تجدون الحَقُّبَ في كتاب الله المنزل؟ قال نجده ثمانين سنة، كل سنة اثنا عشر شهرا، كل شهر ثلاثون يوما، كل يوم ألف سنة. وقيل الحَقُّبُ أربعون سنة، كل يوم منها كآلف سنة مما تعدُّون وذكر أن الحَقُّب الواحد ثلاثمائة سنة كل سنة ثلاثمائة وستون يوما كل يوم ألف سنة، وقيل هي سبعمائة حُقب، كل حقب سبعون سنة، وقيل الأحقاب لا عدة لها إلا الخلود ولا انقطاع لها، فكلما مضى حُقب جاء حُقب بعده، والحقب الواحد ثمانون سنة. (كثير، 1420هـ-1999م، ص305-306) أما في قوله تعالى {أو أمضي حقبا} فحددها ابن ثعلب بأقل من ثمانين سنة، لأن موسى عليه السلام لم ينوي أن يسير ثمانين سنة، ولا أكثر، وذلك أن بقية عمره في ذلك الوقت لا تحتل ذلك. (منظور، 1419هـ-1999م، ص253) فنخلص إلى أن الحقبة هي مدة من الزمن قد تكون سنة أو أكثر.

إصطلاحاً:

الحقبة في الاصطلاح عصر يتميز بسمات خاصة، يختلف ويتغلب على مذهب ما، وغالبا ما تنسب إلى وقائع سياسية غير أدبية. (علوش، 1405هـ-1985م، ص70) ويتم تحديد الحقبة من خلال وضع الحدود والفواصل بين الحقب. (بوحسن، 2003، ص53) فالتحقيب أداة مساعدة للباحث في معالجة موضوعه في فترة زمانية ومكانية محددة من جهة، ووسيلته التشييدية التي تتضمن فرضيات وأدوات علمية تمحص تبعا لمسار البحث من جهة أخرى. وكلما كان تحديد الحقبة دقيقا كلما اتسم التأريخ بموثوقية أكثر. (أحميد، 2016، ص30)

ويحتاج التحقيب إلى متطلبات معرفية وعلمية، وخلفيات إيديولوجية حتى لا يكون عبثيا واعتباطيا، وإنما يكون حصيلة قراءة وتأويلات عديد من المتون، ونتيجة تأمل في مسار التاريخ السياسي والاجتماعي والثقافي الخاص بالبيئة المراد التحقيب لها، مما يبرز ذاكرتها التأريخية والمعرفية، فتتجلى هويتها ويستشف مستقبلها. (مفتاح، 2010، ص120) فالتحقيب يتم بالمواضعة الاجتماعية والمواضعة الأدبية، ويخدم مقاصد إيديولوجية ووظائف اجتماعية، مما يحث على إعادة النظر في التحقيقات الأدبية والسياسية والثقافية بتبدل الوقائع والأحداث لارتباطه بروح العصر. (مفتاح، 2010، ص22) "فكل تحقيب هو نتاج لاتفاق يحصل في لحظة ما بين فاعلين معينين في إطار جغرافي وفكري وزمني محدود، فهو يحمل بالضرورة بصمات هذا الإطار ويعبر عنه. وطبيعي أن يكون كل تحقيب مرشحا للتغير ما إن يحصل تحوّل في المعطيات التي كانت أساس تشكّله في الأصل... وقد يعطى لتحقيب قديم معان جديدة." (هنية، 2016، ص225) فكل حديث عن تاريخ الفكر أو العلم يستوجب، ضرورة، القيام بتقسيمات

وتقطيعات للمدة الزمنية المدروسة تحددها طبيعة الموضوعات التي تفرض ترتيبا معيناً للزمان والمكان. (الطالب، 2008، ص148)

وعى سعد الله بالمنهج في ممارسة التحقيب:

إذا تصفحنا كتابات أبي القاسم سعد الله نجده قد حمل نفسه وألزمهما التعريف بأدب بلاده، وتاريخها الثقافي الذي كاد أن يكون مغيباً على الساحة العربية، هذه القضية التي شغلته مد كان طالبا في جامع الزيتونة إلى أن صار أستاذا مختصا في التاريخ (خريج الجامعة الأمريكية) فيقول بخصوص ذلك: "بعد قدومي إلى المشرق العربي (خريف 1955) صدمني ضعف العناية بأدب المغرب العربي عامة وأدب الجزائر خاصة، فأخذت على عاتقي أن أعرف على الأقل بالأدب الأخير. وقد كانت أحداث الثورة في الجزائر تشجعني وتثير حماسي لزيادة البحث. (سعد الله، دراسات في الأدب الجزائري الحديث، 1985، ص07) فهو مثلما وصفه العلامة محمد البشير الإبراهيمي: "مشغوف إلى حد الافتنان بالبحث عن الآثار الأدبية والعلمية لعلماء الجزائر في جميع العصور." (سعد الله، شاعر الجزائر محمد العيد آل خليفة، 1984، ص09) ففي تقديمه للجزء التاسع من موسوعته "تاريخ الجزائر الثقافي" يعلن سعد الله عن غايته العلمية التي تحركه للاشتغال في مجال التأريخ، بقوله: "هدفنا هو متابعة التطور الثقافي للجزائر خلال الثورة، وهذا المنهج اقتضى منا أن نجمع الإنتاج، سمينه وغثه، وتدوينه وتصنيفه حفاظا عليه من التلاشي." (سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي 1954-1962، ج9، 2009، ص08) والمتأمل في كلام الإبراهيمي وتصريح سعد الله يكتشف أن الإقدام على البحث في المجال الثقافي والخوض في دراسة التطور الأدبي لن يتأتى بطريقة اعتباطية، وإنما يحتاج إلى معرفة مسبقة بالمنهج بالتاريخي الذي استنتت الدراسات الأدبية التي عاصرها منهجا واضحا تحتكم إليه.

ولمتتبع لإنتاج سعد الله الفكري الخاص بالتأريخ للأدب يدرك أنه لم يجد عن أهم فنيات المنهج التاريخي المتمثلة في التحقيق الأدبي، الذي اعتاد المؤرخون النظر إليه على أنه جملة من الوقائع والأحداث المتعاقبة، تُقسَّم وتُصنَّف إلى حقب بشكل تفاضلي أو تحقيري، تحددها وقائع كان لها أثرها في المجتمع وبصمتها عليه، يستندون إليه كأداة إجرائية أو تصور نظري يمكن أكثر من غيره من رصد ظاهرة تطور الأدب (بوحسن، 2003، ص50). ورغم الغياب شبه التام لمصطلح الحقبة أو التحقيق في كتابات مؤرخنا، فإنه تحضر مكانه عديد المفردات الدالة على معناه، مثل: القرن، الفترة، المرحلة، العصر ... وهو الوعي الذي سنلمسه أكثر في ممارساته التجريبية من خلال التساؤل حول المعايير والمقاييس التي يستند إليها سعد الله في تحديد الحقب الأدبية.

منهج سعد الله في التحقيق:

من أجل تشريح الممارسة التحقيقية لدى سعد الله نحاول الاشتغال على أهم منجزاته في تأريخه للثقافة والأدب؛ حيث عهدناه منذ مقاله "تصميم للشعر الجزائري الحديث" يحاول أن يثبت أن للجزائر قدما راسخة في الأدب العربي، وأن لها إنتاجا جديرا بالدرس، مهما كان له من الجودة أو الانحطاط الذي يعكسه الوضع الذي عاشته الجزائر، (سعدالله، دراسات في الأدب الجزائري الحديث، 1985، ص32) خاصة وأن معظم ممارسي التحقيق يعتمدون التحقيق السياسي أساسا لرصد تطور الأدب، وفق مراحل تاريخية يقوم المحقب "بتحديدها وعزلها، وإعادة تشييدها بغية إبراز مكانتها الإبداعية، وإظهار ما تكتنفه من إيجابيات وسلبيات." (أحميد، 2016م، ص30) وتظهر أول ملامح التقطيع في تأريخ الأدب لأبي القاسم سعد الله في بحثه "تصميم للشعر الجزائري" الذي قام بتقسيمه حسب فترات رسم معالمها كما يلي:

- شعر المنابر: الممتد من أواخر القرن التاسع عشر إلى سنة 1925م.

- شعر الأجراس: 1925-1936م

- شعر البناء: 1936-1945م

- شعر الهدف: 1945-1954م

- شعر الثورة 1954م

إن هذا التقسيم الذي عمل به سعد الله مستمد من الظروف التي عاشتها الجزائر، وتسمياتها تعكس الغاية التي حركت الشعراء، وأطلقت لهم العنان لقول الشعر، فهي أقسام ومراحل مستجدة ترسم سير الحركة الشعرية الجزائرية كما لم نعهد لها في كتابات غيره ممن مارسوا التحقيق. إنه تقسيم "حسب الفترات التي يكثر فيها الاصطراع الشعبي، وتتدافع أثناءها أمواج الوطنية في أشكال مختلفة." (سعد الله، دراسات في الأدب الجزائري الحديث، 1985، ص35) ومع صعوبة وضع الحدود بين المراحل الأدبية وتحديد معالم البداية والنهاية فلا مفر لدارس الحركة الأدبية، أو الشعرية من الانصياع لهذه الممارسة التي يفرضها الوضع السياسي، أو الديني، أو الفكري، الذي ترضخ له البلاد وفي ذلك يقول سعد الله: "يجب أن يكون واضحا أن تناول الشعر على هذا النحو لم يكن مستندا على اعتبار أن كل فترة تمثل حدا فاصلا. إن المقصود من ذلك التناول يقوم على تتبع الحوادث التاريخية ومدى تأثيرها في الشعر." (سعد الله، دراسات في الأدب الجزائري الحديث، 1985، ص36)

ومما يلاحظ على المسميات التي أطلقها سعد الله على كل حقبة شعرية أنها تتجاوز البعد الزماني إلى تحديد المكان التي ترتبط به، و الحال الذي تعبر عنه، فنجدته يربط مصنفه الأول ربطا وثيقا بالمكان الذي ينطلق منه، فهو إذ يطلق عليه شعر المنابر فإنه يقصد المعنى الحرفي للعبارة "فهو شعر منبري لحما ودما." (سعد الله، دراسات في الأدب الجزائري الحديث، 1985، ص36) أساسه الوعظ والإرشاد، تكثر فيه الألفاظ التي ترمي إلى

إنماء الوعي الشعبي عن طريق الدين، والاصلاح، ومقاومة البدع، والخرافات، بالاعتماد على شعر المنابر الذي يبعث الحماس في الشعب، كما يفعل الخطيب بكلماته المنبرية البهتة. وقد وجد هذا الشعر في الصحافة، والاجتماعات العامة، والحفلات الخيرية، وسائلا لنقل الشعر للجمهور.

أما الفترة أو المرحلة التي أطلق عليها شعر الأجراس فقد صحت التحولات التي شهدتها الجزائر، مع ميلاد جمعية العلماء التي كانت حركة إصلاحية غير رسمية، ومع مولد الحزبين الشيوعي أو الاشتراكي ظهرت جريدة البصائر، وتقوت مجلة الشهاب بهذا الوضع الجديد الذي راح يدق الأجراس ويطلق الصفارات متماشيا مع التيار الوطني المتدفق من نفسية الشعب القلقة.

وفي المرحلة الثالثة (شعر البناء) آلت إمارة الشعر إلى مُجد العيد آل خليفة الذي واصل الدرب الذي شقه أسلافه، وقد ساعده على انجاز مهمته تطور المفاهيم القومية، فضلا عن ظهور المدارس الأدبية التي دخلت الشعر العربي عن طريق أدباء المهجر وبعض شعراء المشرق، الذين وصلوا إلى الجزائر عن طريق فرنسا. (سعدالله، دراسات في الأدب الجزائري الحديث، 1985، ص36) في هذه المرحلة عرفت الجزائر أكبر الهزات الوطنية والعالمية، ففيها انعقد لأول مرة، مؤتمر شعبي حضره آلاف المواطنين واشترك فيه عدد من الهيئات الوطنية (المؤتمر الإسلامي الجزائري 1937)، وتحدث فيه الخطباء عن القضية الجزائرية، ونادوا بكيانها المستقل. وتهيَّج الحماس في الشعراء فتغنوا بالوحدة والنضال. ورغم فشل هذا المؤتمر من الناحية السياسية إلا أنه كان نقطة انطلاق كبيرة في تاريخ الكفاح الجزائري. كما عاشت الجزائر أحداث الحرب العالمية الثانية، واشتد التوتر بين الهيئات والأحزاب حول الطرق التي تمكنهم من تحقيق أهدافهم، فأخذ شعر البناء على عاتقه الدعوة إلى الوحدة الشعبية والوطنية، ومواجهة العدو بشيء من

الصراحة، و صدح يبشر بما للجزائر من طاقات وخصائص تميزها، وتجعل منها شخصية أنموذجية. (سعد الله، دراسات في الأدب الجزائري الحديث، 1985، ص41)

أما أحداث مجزرة 8 ماي 1945 فيعدها سعد الله سببا في ظهور مرحلة جديدة من مراحل الشعر الجزائري، تغنى فيها الشعراء بـ "ألحان الحرية والضحايا والاستقلال والعلم الرفراف... التي لم تكن لتظهر لولا التطور الكفاحي الذي كان يدنو من الهدف." (سعد الله، دراسات في الأدب الجزائري، 1985، ص32) وكان من طليعة هؤلاء الشعراء، الذين آمنوا بالهدف الواحد، المرجو تحقيقه، وهو الاستقلال ولا غير الاستقلال: الربيع بوشامة، عبد الكريم العقون، أحمد الغولمي، موسى الأحمد، الأخضر السائحي، محمد العيد، مفدي زكريا.

في حين يمثل شعر الثورة المرحلة الخامسة من التصنيف الذي وضعه أبو القاسم سعد الله للشعر الجزائري، فباشتعال الثورة أدكت العواطف وُهت المشاعر والأفلام، وفُتحت أمام الشعر آفاقا ما كان يحلم بها، لولا الدم والنار والحديد، فتفجرت عواطف الشعراء بشعر ثوري عارم، يتغنى بالوطن والحرية، ويضمم الجراح، ويكفكف الدموع، ويخلد الأبطال والشهداء. هذه الفئة من الشعراء كانت وليدة الثورة شعريا، ولكنها كانت سابقة لها زمنيا. (سعد الله، دراسات في الأدب الجزائري، 1985، ص46)

من خلال تتبعنا للممارسة التحقيقية التي أقام عليها أبو القاسم سعد الله مقاله "تصميم للشعر الجزائري الحديث" الذي نشر في مجلة الآداب سنة 1957م، يظهر لنا حسه النقدي المبكر وذائقته الأدبية اللذين تشكلا في ظروف قاسية، عانت فيها الجزائر صمتا أدبيا جعل الآخرين يعدونها في قافلة الأموات، فكانت محاولة تكابد كل الأوضاع لتثبت أن "للجزائر قدما راسخة في الأدب العربي وأن لها إنتاجا جديرا بالدرس. ومهما كان شأن هذا الأدب من الجودة أو الانحطاط، فإنه كان تعبيرا عن الحياة التي عاشتها الجزائر وراء القضبان عشرات السنين" (سعد الله، دراسات في الأدب

الجزائري، 1985، ص32) ويتجلى وعيه بحاجة الناقد للتحقيب دون أن يكون عملية ميكانيكية، أو قوالب جاهزة، يقطع فيها الأدب إلى شرائح تتوافق ومقاساتها في قوله: "يجب أن يكون واضحاً أنَّ تناول الشعر على هذا النحو لم يكن مستنداً على اعتبار أن كل فترة تمثل حداً فاصلاً، إن المقصود من ذلك التناول أنه يقوم على تتبع الحوادث التاريخية، ومدى تأثيرها في الشعر." (سعد الله، دراسات في الأدب الجزائري، 1985، ص32) إنه يستعين بالتحقيب لفهم الظاهرة الأدبية من خلال فهم المؤثرات الحضارية سياسية كانت أو اجتماعية أو ثقافية.

تحقيب تاريخ الجزائر الثقافي:

جرت عادة مؤرخي الأدب على رصد تاريخ الأدب العربي والثقافي بما يحتويه من العلوم والآداب الذي تنتجه قرائح أبنائهم في مختلف العصور، متبعين حذو المستشرقين وطريقتهم في تقسيم الآداب إلى عصور، وإن اختلفوا معهم في تحديد الزماني والانتماء المكاني، ومدى استيعابهم للمعيار السياسي. وعلى مثل هذا السبيل يؤسس أبو القاسم سعد الله منهجه في دراسة تاريخ الجزائر الثقافي الذي يربط فيها بين التطور الأدبي والتطور التاريخي، وما طرأ على البلاد من تغيرات سياسية أحدثت تبدل في الوضع العام، الذي شمل الحياة الثقافية والأدبية، التي انطلق منها في ممارسته للتحقيب، الذي مكّنه من تتبع مجريات الحياة الثقافية خلال ثلاث مراحل تمثلت في: الحقبة العثمانية، حقبة الحركة الوطنية، وحقبة الثورة التحريرية.

الحقبة العثمانية 1500 - 1830م:

خص أبو القاسم سعد الله الجزء الأول والثاني من مَطَمَتِهِ الموسوعية "تاريخ الجزائر الثقافي" لتشمل الفترة الممتدة من مطلع القرن السادس عشر (16م) إلى غاية 1830 م. موضحاً النظرة السلبية التي طالما وُسم بها هذا العهد من حيث إنتاجه

الفكري والثقافي: "ذلك أن الناس تعودوا على وصم العهد العثماني الذي يمثل ثلاثة قرون من تاريخ الجزائر، بالفراغ الثقافي والعقم الفكري، فإذا هم يكتشفون في هذا الكتاب الدليل على حيوية الحياة الثقافية في هذا العهد." (سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي 1500-1830، 1998، ج1، ص11) فقد شاع أن الإنتاج الأدبي والتاريخي والعلمي كان محصورا في بلاطات الحكام، الذين لم يعقدوا المجالس العلمية والمناظرات الأدبية التي تشحذ المواهب وتبرز القضايا الفكرية على نحو ما كان يفعل أمراء بني زيان وبني حفص؛ إذ كانوا لا يتكلمون لغة البلاد ولا يتذوقون أدبها ولا يقرؤون كتبها ولا يتصلون بعلمائها، مما جعله يُعرف بعهد الانحطاط الثقافي. (سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي 1500-1830، 1998، ج1، ص18)

يربط سعد الله بين الانحطاط السياسي والأدبي من خلال تتبع الخط البياني للثقافة في الجزائر الذي كان يسير في حالة اطراد وصعود. فبعد النزاع السياسي الكبير الذي عانت منه هذه الثقافة في القرن (10هـ/16م) الذي شهد هجرة العلماء الواسعة وكثرة الحروب، أخذت الحياة تدب فيها في القرن الحادي عشر، بفضل استقرار الأوضاع السياسية وازدهار الحياة الاقتصادية، ثم شهد القرن الثاني عشر (18م) وأوائل القرن الثالث عشر حركة قوية في صفوف العلماء والعناية بالتعليم وكثرة التأليف. (سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي 1500-1830، 1998، ج1، ص19)

والمتصفح للكتاب يجد سعد الله واعيا بأهم الإشكالات التي يقع فيها المحقب والمتمثلة في وضع الحدود الزمنية، وتصنيف الأدباء والعلماء، إذ يأطر لعلماء العهد العثماني فيضم إليهم من عاشوا حتى أدركوا حوالي عشرين سنة من القرن العاشر الهجري (16م)، وهي قاعدة كثيرا ما يصعب التمسك بها، كما يصعب تحديد نهاية العهد العثماني مع العلماء الذين أدركوا العهد الفرنسي. فنظر في هذه الحالة إلى السن والتأليف، "إذا كان العالم قد قضى معظم حياته في العهد العثماني اعتبرناه منه ولو

أدرك العهد الفرنسي، كما أن العالم الذي أدرك هذا العهد ولكنه ألف في العهد السابق له نظرنا إليه نظرة المخضرم. " (سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي 1500-1830، 1998، ج1، ص26)

ويتجلى اهتمام سعد الله بالإنتاج الأدبي وأعلام الفكر خلال العهد العثماني في الجزء الثاني، الذي خص منه 160 صفحة من أصل 445 عدد صفحات الكتاب التي تدرج تحت مفهوم الأدب الموسوعي؛ حيث تتحول النصوص فيه إلى وثائق تاريخية مشبعة بالأخبار التي تحدد الأوضاع السياسية والدينية والثقافية التي واكبت تفتق الظواهر الأدبية، متقصيا الإرث الحضاري الإسلامي الذي عرفته الجزائر خلال العهد العثماني. فبعد أن حدد الإطار الزمني الذي يشمل هذه الفترة، ووقف عند أهم المؤثرات في الحياة الثقافية، من خلال عنايته بمختلف العلوم التي عرفها العصر؛ حيث نجده يبرز اهتمام الجزائريين بالعلوم الشرعية والصوفية وعلم التاريخ والتراجم، إلى جانب الفنون والعلوم، مثل الحساب والفلك والرسم والموسيقى، لأن تاريخ الأدب كما يقول بروكلمان: "سبقى غير كامل إذا أردنا أن نخضعه لقيود الثقافة الحديثة، واقتصرنا على الشعر وحده." (بروكلمان، د ت، ج1، ص04) متبعا في ذلك طريقة تكاد تكون واحدة بعيدة عن الطرق التقليدية التي تقوم على جمع المادة وحشرها في الكتب، بدون رأي أو تمحيص أو ترتيب. إنه يدرس الظواهر ويحللها ويعللها، كما يدرس الإنتاج ويصنفه ويقيمه ويناقش المؤلفين آراءهم ويقارن بينها، "فمادة الكتاب إذن ليست كتلة جامدة من الحوادث التاريخية أو تجريدة إحصائية للإنتاج." (سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي 1500-1830، 1998، ج1، ص24) إن سعد الله يتجاوز الطرق التقليدية التي تعتمد على الجمع والرص التي ألفتها الكتب القديمة إلى التزام المنهج العلمي والبحث الأكاديمي.

من هنا سننطلق في التعرف على نظرة سعد الله وبيان موقفه من الحركة الأدبية منذ سيطر الأتراك على حكم البلاد الذي عده الكثير من المؤرخين معلما بارزا يحدد تراجع مكانة الأدب الجزائري في حضرة التواجد العثماني. ولعل هذا ما حمل سعد الله على التصدي لتسمية هذه المرحلة بعهد الانحطاط، لأن العطاء الأدبي خاصة والثقافي عامة ما زال متوفرا. ويتجلى الاهتمام بالجانب الأدبي في الفصلين الثالث والرابع. أما الفصل الثالث المسوم بعلوم اللغة - النثر الفني وقد قسمه إلى ثلاثة أقسام، ضم الأول منها علوم اللغة من نحو وصرف وفقه لغة، ثم العروض والبلاغة، وفي القسم الثاني درس فنون النثر الأدبي من رسائل ومقامات وخطب وتآليف أدبية. أما القسم الثالث فترجم فيه لشخصيتين أدبيتين لهما أثرهما البين في الأدب.

ومما يؤكد اعتماد سعد الله طريقة المستشرقين أمثال كارل بروكلمان ومن حذا حذوه من المؤرخين العرب أمثال: جرجي زيدان، وطه حسين، وعمرو فروخ... تأكيد الدائم وإصراره الملح على دراسة الظاهرة الأدبية في ظل الأوضاع السياسية، وفي ذلك يقول: "وقبل أن ندخل في تفاصيل هذه الفنون ودراساتها، نذكر بما قلناه في الفصل الأول من أن معرقلات نمو اللغة وانتشار الآداب كانت أقوى من المشجعات، فالولة كانوا لا يفقهون العربية ولا يتذوقون أدبها، ولا نتوقع ممن هذه حالته تشجيع الأدباء والشعراء وتذوق إنتاجهم." (سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي 1500-1998، ج2، ص171) ويستثني من هذه الحالة وجود بعض الباشاوات، مثل محمد بكداش الذي جمع حوله نخبة من المثقفين فجمع النظم والنثر والخطابة والشعر، فقد كان له أدب غرض المقاطف رطب المعاطف، إلا أن فترة حكمه لم تدم أكثر من ثلاث سنوات، وشجع الباي محمد الكبير حركة الكتابة والتأليف والتعليم باللغة العربية فازدهرت هذه الحركة في عهده وظهرت أسماء من الأدباء والعلماء، ولكن هذه الحركة أفلت باختفائه. (سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي 1500-1830، ج2، ص171)

ومن الظواهر الأدبية التي شدد انتباه سعد الله خلال العهد العثماني هي المجالات التي خطّت فيها أقلام الأدباء، فبدلاً من أن تتجه -حسبه- لكتابة القصص والروايات والتأليف في الظواهر الثقافية والنقد، عمدت إلى شرح الأعمال الأدبية الجاهزة، من ذلك قصيدة سعيد المنداسي المسماة "العقيقة"، التي تداول على شرحها كل من أبي راس الناصر وأحمد بن سحنون الراشدي.

هذا ولم نتعرف بعد عن حالة الشعر الذي خصه سعد الله بفصل كامل والذي قال عنه: "تتناول في هذا الفصل حالة الشعر في العهد العثماني وأغراضه، وقد وجدنا بعد دراسة مستفيضة أن الشعر كان نسبياً مزدهراً وأن أغراضه قد تعددت حسب بواعثه، وهي الدين والسياسة والاجتماعيات والذات." (سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي 1500-1830، 1998، ج2، ص239) ولاحظ سعد الله أن الكثير من دواوين الشعراء الجزائريين لا يزال طي النسيان، إذ لا يعرف ديوان واحد من العهد العثماني قد جمع وحقق فدواوين المنداسي وابن علي وابن عمار والمقري والمناجلاتي وابن سحنون وابن الشاهد وأضرابهم لم تنشر أو تعرف بعد، وكل ما يعرف عن هذا الشاعر أو ذاك هو بعض الأبيات أو القصائد المثبتة عرضاً في أحد المصادر التاريخية أو الفقهية أو المتفرقة في الوثائق العامة. (سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي 1500-1830، 1998، ج2، ص239) فلا تزال الدواوين التي يسمع عنها، والتي تنسب للشعراء الجزائريين والمنتشرة في المكتبات العربية عبارة عن مخطوطات تنتظر يدا تطولها، وتعمل على جمعها وتحقيقها، وهي دعوة تنم عن الاهتمام البالغ لسعد بتحقيق المخطوط، والتعريف بأدب الجزائر عبر العصور.

ويتمسك سعد الله بأهداف التحقيق حين يصر على ربط الأثر الأدبي ببيئة الأديب وشخصيته، من خلال الاستعانة بالتاريخ، باعتبار الأدب جزء من تاريخ الحضارة ومظهرها للحياة القومية. وسجل كل تيارات الأفكار والمشاعر التي تعكس الحياة

السياسية والاجتماعية والنفسية. وسعى لرصد ملامح الشعر الاجتماعي، وإن كان محدود الأغراض خلال تلك المرحلة، فضلا عن إبراز القصائد الشعرية التي أجادت وصف وتمجيد المنشآت العمرانية التي أقامها بعض الولاة، من أجل إبراز خصائص الحقبة المدروسة على الصعيد الحضاري.

إن جهود سعد الله في التحقيب الأدب في العهد العثماني تعمل على صنع تراث أدبي ثقافي للجزائر العثمانية، رغم ندرة الكتب والكتابات التي تدل على وجود ذخيرة أدبية كبيرة. لذلك فإنه لا يتوانى في إثبات ماضٍ ثقافي جزائري، مهما كانت قيمته .

حقبة المقاومة والحركة الوطنية 1830-1854م:

تغطي هذه الحقبة عهد الاحتلال الفرنسي الممتد من سنة 1830 إلى سنة 1954م عبر خمسة أجزاء من موسوعة تاريخ الجزائر الثقافي، وتماز هذه الحقبة- في نظر سعد الله- عن سابقتها في تجاوزها لمؤلفات الجزائريين إلى كتابات الفرنسيين، لأن أعمال المترجمين والمستشرقين والفنانين والمؤرخين الفرنسيين مستوحاة من تراث الجزائر، وكانوا يحاولون توجيهه وجهة تخدم المصالح الفرنسية. "وهنا يكمن الفرق بين العثمانيين والفرنسيين. فالعثمانيون لم يكتبوا عن الثقافة الجزائرية وإنما تركوا أهل البلاد يتولون ذلك بأنفسهم، أما الفرنسيون فقد تولوا شؤون الثقافة بأنفسهم، وزحزحوا عنها علماء وأدباء البلاد." (سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي 1830-1954، 1998، ج3، ص06)

ولا تختلف هذه الموسوعة التي ينسجها سعد الله على المحك نفسه الذي عهدناه في الحقبة السابقة، فبعد أن حدد الإطار الزمني الذي ستشمله أجزاء هذه الموسوعة، التي تدرس فترة الاحتلال الفرنسي، ينتقل لتحديد الموضوعات التي سيدرسها بتنوعها، والتي تتمثل في موضوعات ومظاهر الثقافة من تعليم وتصوف، ورجال دين وقضاء ونخبة، ومعالم وأوقاف، ومنشآت، والاستشراق والتبشير، والترجمة والمترجمين، والتيارات والمذاهب، وأنشطة المهاجرين، إضافة إلى دراسة الإنتاج الثقافي نفسه في العلوم الدينية

والاجتماعية والتجريبية، وفي الآداب والفنون والتاريخ (سعدالله، تاريخ الجزائر الثقافي 1830-1954، 1998، ج3، ص05) فالكتاب يهدف إلى إبراز الثقافة الجزائرية في ثوب المقاوم الصامد، للحفاظ على الهوية الوطنية والقومية العربية، الذي سعى الاستعمار للقضاء عليها من خلال تهميش ثقافة الجزائر ومحاربة رموزها ومقوماتها، ومحاربة القائمين عليها من أهل الأدب والفن والدين. (سعدالله، تاريخ الجزائر الثقافي 1830-1954، 1998، ج3، ص09).

وكل ذلك كان يسهم في عنايته واهتمامه بتاريخ الجزائر، فقد كانت دراسته لتاريخ الشعوب الأخرى لا سيما تاريخ أوروبا الحديث تدفعه دائما للمقارنة بين ما يحدث في الجزائر وبين ما يحدث في أماكن أخرى. وفي ذلك يقول: "فكلما قرأت كتابا عن مشاكل أوروبا السياسية والاجتماعية والثقافية والدبلوماسية أو عن ثورات الأقليات وظهور القوميات، إلا طار فكري إلى الجزائر وأهلها ونضالهم وتراثهم الذي كاد ينساه التاريخ." (سعدالله، منطلقات فكرية، 1982، ص61) لقد كان لجمعه بين الأدب والتاريخ أثره الجلي في التأسيس لمعلمته تاريخ الجزائر الثقافي؛ إذ أن التاريخ يوسع أفق الأديب ويعطيه المعلومات التي يصوغ منها أفكاره والحكمة التي يستنتج منها آراءه، والشخصيات والحوادث التي يستوحي منها تجاربه. كما أن الأدب ضروري للمؤرخ. فمنه يستمد تعبيراته وأساليبه بل إنه ينظر للتاريخ على أنه نوع من الأدب "يدرسه الناس للمتعة والحكمة والاطلاع." (سعدالله، منطلقات فكرية، 1982، ص64) وعليه جاءت موسوعته شاملة تعكس لنا صورة سعد الله المؤرخ والأديب الناقد. ويهمنا من ذلك كله تجربته في تاريخ الأدب التي أقامها أساسا على التقسيم الزمني ليقبل بعدها على كل مرحلة يتتبع فيها الحياة السياسية والاجتماعية والعلمية التي تعينه على التعمق في تراثها الثقافي والأدبي، يجعل الأدب أقساما يؤرخ لها حسب الأغراض، بعد أن يكون

قد مهد للكتاب بوصف وضع الأدب المؤرخ له من رقي وانحطاط خلال العصر المراد دراسته. وعليه نجده يفتح الكتاب بتقديم وصف لحالة الأدب والثقافة غداة الاحتلال فيقول: "إذا حكمنا من الكتابات التي عاصرت الاحتلال في مرحلته الأولى أدركنا أن الثقافة كانت تعاني ضعفا كبيرا. كان هناك شعراء مجلون أمثال مُجد بن الشاهد - وقد كان في آخر عمره - ولكن لا وجود لأدباء مجلين فمدرسة بن عمار قد تلاشت، ولم يخلفه في ميدان النثر الأدبي والفني من ساواه أو قاربه. والأدباء الأحرار الذين كانوا ينشطون خارج الإدارة أصبحوا نادرين ومعظمهم هاجروا. أما الكتاب (الخوجات) الإداريون فقد كانوا ضعافا بصفة عامة." (سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي 1830-1954، 2009، ج8، ص07) ولم تستقر حالة الأدب على ما هي عليه فبعد أن وظف الفرنسيون بعض الجزائريين في مختلف المجالات الدينية والديوانية والترجمة والصحافة نشأ أدب مختلف عن سابقه، فكرا وروحا وأسلوبا، عرف بالأدب العربي الفرنسي "الفرونكو- آراب" ثم ظهرت بعدها فئة من الأدباء الأحرار وحركات تهتم بالتأليف ونشر المخطوطات، إلى جانب الأدباء المتأثرين بالثقافة العربية القادمة من المشرق رغم سيطرة المدرسة الفرنسية.

أما بخصوص الأدب في الجزء التاسع من الموسوعة فقد خصص منه سعد الله فصلين، أحدهما للنثر والآخر للشعر، مفصلا الحديث عن أهم الأغراض الأدبية وأبرز معالمها من خلال الاستعانة بالتحقيب كإجراء مساعد على التقطيع والتجزئ، قصد تبسيط وفهم سيورة وتطور الأدب (الطالب، 2008، ص154) وتماشيا مع هذا يقول سعد الله: "ولعل تقسيم الفترة إلى أجيال وتفریق الأدب والبلاغة على العناوين التي أشرنا إليها يكفي في رصد المعالم" (سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي 1830-1954، 2009، ج8، ص67)

وإذا كان سعد الله يقر بضعف المستوى الثقافي في العهد الفرنسي عموماً، فإن ذلك لا يتعارض ووجود العديد من الفنون النثرية، والتي يحصرها في المقالة الصحفية، والتقاريط، والرسائل، والخطابة، والعرائض وما يتصل بها، والبلاغات أو النداءات، والتعزي، فالمقامات، والروايات والمسرحيات والشروح الأدبية وتحقيق المخطوطات... متتبعا مراحل تطورها، التي يرجعها غالبا للأحداث السياسية. ومما يدل على ذلك تكرار العديد من العبارات الدالة على ذلك: "في عهد الاحتلال"، "ثم جاء جيل آخر"، "جيل الثلث الأخير من القرن الماضي"، "الجيل الرابع تميز بظهور مدرسة شاملة في فنون النثر"، "وفي أوائل هذا القرن ظهر عمر بن قدور بأسلوبه الصحفي الجذاب"، "لم تكد الحرب العالمية الأولى تنتهي حتى ظهرت النجاح والإقدام"، "الجديد هو ما نشأ في العهد الذي ندرسه"، "صدرت العرائض منذ بداية الاحتلال"، "مراحل التأثر باللغة الفرنسية ثلاث من 1830 إلى 1880 المرحلة الثانية من 1880 إلى 1920 والمرحلة الثالثة من 1920 إلى 1950..."

ونمثل لممارسة سعد الله للتحقيب السياسي في دراسة النثر الأدبي بفن الخطابة التي قسمها إلى مرحلتين هي:

عهد الأمير عبد القادر: وجاء الخطابة فيه متصلة بزعماء المقاومة وعلى رأسهم الأمير عبد القادر خطيب الأمة وخطيب الجهاد وخطيب الصلوات، وتتمثل خطبته الأولى في قبول البيعة والحث على الجهاد والطاعة. كما له عديد من الخطب السياسية والعسكرية التي كان يلقيها في المؤتمرات، وجموع القبائل والحشود العسكرية. ومن أشهر الخطب في عهده خطبة عمه علي بن طالب سنة 1837 التي تحث على قبول معاهدة التافنة، باعتبارها تخدم الدين والوطن. (سعدالله، تاريخ الجزائر الثقافي 1830-1954، 2009، ج8، ص104)

عهد الأشراف والمرابطين 1848-1882: هؤلاء الذين كان لهم تأثيرهم في المجتمع يحثون على الجهاد وجمع الكلمة وتوحيد الصفوف والطاعة، في عبارات قصيرة وحماس وغيره على الدين والوطن، ومن بينهم الشريف بوبغلة الشريف بوزيان والشريف المقراني والشريف محي الدين والمرابط مُجد الحداد والمرابط بوعمامة... (سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي 1830-1954، 2009، ج8، ص107)

عهد المصلحين والساسة: لقد ظهر هذا النوع من الخطب على يد الشيخ المولود بن الموهوب التي اتخذ من نادي صالح باي بقسنطينة منبرا لإذاعة خطبه، التي كانت تحت على التعليم. ويعد نادي الترقى من النوادي التي عرف خطباء نبغوا في استعمال اللغة العربية الفصيحة والقدرة على الارتجال، أمثال الشيخ الطيب العقبي وابن باديس وأحمد توفيق المدني وابن باديس... وقد توسعت الخطبة الإصلاحية في عهد جمعية العلماء المسلمين مع جمع من الخطباء أبي يعلي الزواوي والعربي التبسي ومبارك المليي وعبد القادر الباجوري، الذين أعطوا للخطابة وجهة اجتماعية، فطرقوا لموضوعات الفقر والغنى والتكفل الاجتماعي والتضامن والمرأة والتعليم، وموضوعات وطنية كتاريخ الجزائر والعرب والاسلام والاستعمار واستقلال الشعوب وحررتها. واشتهرت أنواع أخرى من الخطب كالخطابة الدينية الخاصة بالجمعة والأعياد. وقد ضعف هذا اللون من الخطب في عهد الاحتلال الفرنسي بالتدرج لضعف مستوى الثقافة وهجرة العلماء الأكفاء ومنح الوظيف لمن رضيت عنه السلطات الفرنسية وعرفت إلى جانب الدينية الخطب التعليمية والتأبينية. (سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي 1830-1954، 2009، ج8، ص109)

أما عن تتبعه لتطور حركة الشعر فقسمه إلى ثلاثة مراحل:

المرحلة الأولى 1851-1880: وهي الفترة التي كاد يغيب فيها الشعر الفصيح، الذي استعيز عنه بشعر الزجل (الملحون) الذي سجل الملاحم ووصف الطبيعة والصيد

والمرأة والمآسي التي أملت بالشعب، ومدح المجاهدين وبكاء الشهداء كما اتجه الشعر خلال هذه المرحلة إلى شعر التوسلات والغوثيات، أو ما يعرف بالشعر الديني المتجه إلى التصوف والاستسلام للأمر الواقع، والمتسم بالضعف الذي يلزم ضعف التعليم.

المرحلة الثانية 1881-1919: وخلالها تهيأت بعض الظروف المساعدة على ظهور الشعر الفصيح حيث برزت بعض الصحف وانتشر التعليم قليلا، مما ساهم في التعبير المحدود عن خلجات النفس خاصة في عهدي كامبون (1891-1897) وجونار (1903-1912) ومن أبرز شعراء هذه المرحلة الشيخ عاشور الخنقي صاحب ديوان "منار الأشراف"، التزم فيه صاحبه غرضا واحدا هو الدفاع عن الأشراف بالحق أو الباطل، ومُجدد بن عبد الرحمان الديسي، فضلا عن بعض الشعراء الذين نشروا انتاجهم رغم قلته في جرائد عربية، فنشرت الجوائب لأحمد فارس الشدياق والمنار لمحمد رشيد رضا والحاضرة لعللي بوشوشة كما شارك الأمير عبد القادر وأولاد اخوته في الحركة الشعرية بالمشرق، التي كانت أكثر خصوبة نظرا لمستوى التعليم، وانتشار الصحف والترجمة وشيوع النقد الأدبي. (سعدالله، تاريخ الجزائر الثقافي 1830-1954، 2009، ج 8، ص 196)

المرحلة الثالثة 1920-1954: وهي أخصب الفترات إنتاجا، فقد ظل الشعر يتقدم ويتسع إلى أن وصل قمته على يد مُجدد العيد ومفدي زكريا، بفضل انتعاش حركة التعليم ورجوع بعض العلماء المهاجرين وظهور الصحف العربية المستقلة عن الحكومة، التي تنافست في نشر القصائد. ونذكر منها الاقدام والشهاب وجرائد الشيخ أبي اليقضان كالنجاح والبلاغ والبصائر وكذلك الاصلاح والمنار. وقد تنوعت أغراض الشعر فتجدد الشعر الذاتي عند رمضان حمود ومبارك جلواح والطاهر البشوشي وعبد الكريم العقون. والشعر السياسي الصريح والمبطن عند ابن باديس ومفدي زكريا والربيع بوشامة ومُجدد العيد، والشعر الاجتماعي عند أحمد سحنون وأبي اليقضان والهادي

السنوسي. ومن شعراء التصوف أحمد المصطفى بن عليوة. كما ظهر خلال هذه الفترة شعر التمثيل الذي يستمد الأمثلة من التراث العربي والثقافة الإسلامية (سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي 1830-1954، 2009، ج8، ص199).

حقبة الثورة التحريرية 1954 - 1962م:

ويأتي سعد الله إلى آخر حقبة عنت بها موسوعته تاريخ الجزائر الثقافي، بعد أن توقف في المرحلة السابقة عند سنة 1954م، وهي كما عبر عنها "مرحلة انتقالية أو مخضمة لابد من اجتيازها ليبدأ مؤرخو الثقافة عندنا بداية جديدة وهي مرحلة الاستقلال". (سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي 1954-1962، 2009، ج9، ص05) ومن بين ما يميز هذه المرحلة عن سابقتها أن المؤلف عايش مختلف أحداث هذه المرحلة، وعاصر مؤلفيها وصناعها، وفي ذلك يقول: "فصوص الثورة، وصحفها، وتنظيماتها، وشعراؤها وفنانوها، وكتابات أنصارها وأعدائها عشنا معها خلال الخمسينات وبداية الستينات، واطلعنا عليها أو سمعنا بها في وقتها، ولكن لم يتح لنا رصدها وتصنيفها كما أتيح لنا خلال السنوات الأخيرة، ثم إن عددا من المذكرات الوثائق والدراسات والتفاعلات ظهرت منذ استقلال الجزائر، وكلها تصب في خدمة الثورة مما أتاح لنا الإطلاع على مادة وآراء جديدة وأغرانا الآن بالكتابة عن عهد يعتبر بمختلف المقاييس قد انتهى". (سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي 1954-1962، 2009، ج9، ص05) ورغم معاشته سعد الله لأحداث الثورة ومعاصرتة لأدبائها ومثقفوها فإنه كان دائم التحفظ عن خوض مجال الكتابة عن هذه الحقبة، خاصة الكتابة عن تاريخها السياسي والعسكري، بخلاف تاريخها الثقافي الذي يظل هو الآخر محفوف بالأخطار لأنه يتناول فئة من النخبة الاجتماعية "التي ترى في الأحكام الصادرة عنها خطرا عليها أو تركية لغيرها". (سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي 1954-1962، 2009، ج9، ص06) ويتأكد ذلك في محاولة بعض المدن أو البلديات التي تسعى إلى تبني شاعرا أو روائيا أو علما أو فنانا وتنسبه

إليها "فتخرجه من قبر العصور إذا كان قديم العهد وتنفض عنه غبار الإهمال إذا كان حديث العهد". (سعدالله، تاريخ الجزائر الثقافي 1954-1962، 2009م، ج9، ص07) وسعيا للحفاظ على التراث الثقافي الذي خلفته الثورة التحريرية فقد عمل سعد الله على متابعة هذا التراث بجمع سمينه وغثه، وتدوينه وتصنيفه حفاظا عليه من التلاشي، ممهدا له بدراسة الحالة الاقتصادية والإدارية والسياسية والحالة الاجتماعية والثقافية؛ لأن تحليل عصر ما يتطلب معرفة الظروف التاريخية للعصر الذي هو قيد الدراسة وما شاع فيه من فنون مختلفة، كالرسم والموسيقى والنحت والمعمار وغيرها. لأن دراسة التوافقات والاختلافات بين الأدب وبقية الفنون الأخرى يعين على فهم معنى العصر الأدبي. (مكي، 2010، ص351).

ومن بين أهم ما يستوقفنا في عمل سعد الله حول تاريخ الجزائر الثقافي، لاسيما في جزئه الخاص بحقبة الثورة، هو التعرف على السبيل التي كف بها مسيرته في التأريخ للأدب الجزائري خلال حقبة الثورة، ابتداء من طرح إشكالية هوية الأدب المكتوب بلغة المستعمر الفرنسي وعلاقته بالثورة الجزائرية، وتبنيهم لقضيتها أمثال: محمد ديب الذي كانت بدايته مع القصص والشعر السريالي ليتحول بعدها إلى روائي وطني يعكس معاناة الشعب الجزائري في ثلاثيته، وقد ظهر الجزء الأول منها الدار الكبيرة قبل الثورة سنة 1952 أما الحريق فكتبت سنة 1954 حيث نقل الكاتب بطله عمر إلى الريف ليكون شاهدا على حالة الفقر لدى الفلاحين ويشهد بداية الحريق (الثورة) ثم ظهرت المنسج (النول) فقد ظهرت سنة 1957م كما نشر مجموعة من القصص كقصّة التمشيط (راتيساج) وهي تصور عملية قام بها الجيش الفرنسي في تلمسان ونواحيها في بداية الثورة، وتصف الحياة في تلمسان أثناء العملية. (سعدالله، تاريخ الجزائر الثقافي 1954-1962، 2009، ج9، ص165) لقد وقف سعد الله على ما انتجه كتاب الجزائر بالفرنسة، من القصص والروايات التي اتفقت موضوعاتهم حول أحداث الثورة،

من أمثال أعما كاتب ياسين ومولود معمري وملود فرعون ومالك حداد وآسيا جبار، التي أثارت قلم سعد الله الناقد والمؤرخ الذي بحث أيضا في الدراسات النقدية التي حضيت بها من طرف نقاد بارزين، مثل: لويس عوض رجاء النقاش كامل الزهيري أنور عبد الملك الكاتب الأمريكي جورج جوايو والناقد موريس نادو.

ونلاحظ أن سعد الله لا يستغني أبدا عن التحقيق السياسي في رصده وتفسيره لجميع الظواهر الأدبية وفهمها، والكشف عن الظروف التي ولدت فيها، والحالة التي صارت عليها. ويظهر ذلك جليا في قوله: "هناك عدة مصادر تتحدث عن الأدب في عهد الثورة كتبت في شكل مقالات أو مؤلفات حرة في شكل تأريخ للأدب العربي في الجزائر." (سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي 1954-1962، 2009، ج9، ص438) ففي رصده لأنواع النثر الأدبي من مقالة وخطابة وقصة ورواية ودراسات نقدية، مثلا لها بأبرز الشخصيات الأدبية، تتكرر معه بعض العبارات التي تكشف لنا تركيزه الفعال على الفترة المدروسة، وعدم تجاوزها وفي ذلك يصب قوله: "ويهمنا منها بالدرجة الأولى المقالة خلال الثورة"، "ويهمنا هنا نشاطه الأدبي خلال مرحلة الثورة"، "عاش عبد الله شريط مرحلة الثورة في عهد النضج"، "ومن الجانب الإصلاحي نشير إلى الذين اشتهروا بالخطابة في عهد الثورة"، "ومن الواجب أن نشير هنا إلى دخول أبي العيد دودو وحنفي بن عيسى ساحة الترجمة إلى العربية ابتداء من مرحلة الثورة، الأول من الألمانية والثاني من الفرنسية"، "أما خلال الخمسينات، وبالخصوص منذ بداية الثورة، فقد ظهر تيار رومانسي جديد وخصوصا منذ اندلاع الثورة التحريرية"، "عبد الحميد بن هدوقة أحد أبرز كتاب القصة والرواية في عهد الثورة وما بعده".

لقد كان لأحداث الثورة أثرها في تحريك أقلام الأدباء وتحديد المجال الذي يخوضون فيه وكأنني بكتاب هذه الفترة كما يقول سعد الله: "يعيشون الثورة عملا وهماً أكثر مما كانوا يعيشون الفكر والقلم" (سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي 1954-1962، 2009، ج9، ص557). وهذا ما نشهده أيضا في نظم الشعراء الذين كانوا مدفوعين برغبة صادقة في

التعبير عن الثورة سواء عند الجيل المخضرم مفدي زكريا ومُجدِّ العيد آل خليفة أو الجيل الجديد.

خاتمة:

نخلص مما سبق إلى ما يلي:

- أن أبي القاسم سعد الله صاحب شخصية موسوعية استطاعت أن تجمع بين الأدب والنقد، وبين التأريخ والتحقيق، من خلال رصده لتطور الحركة الأدبية والثقافية، وإسهاماته في إثبات هوية الشخصية الوطنية التي تجلت في مدونته الأدبية ومُطَمِّنته الثقافية وأبحاثه الأكاديمية، التي استجابت للمناهج العلمية؛ حيث برز اعتماده المنهج التاريخي طريقا واضحا في انجاز مشروعه الضخم، والمتمثل في جمع التراث الأدبي والثقافي الجزائري وتحقيقه وإعطائه حقه من الدراسة والبحث. فمن خلال تقطيعه إلى شرائح سميت حقبا وعصورا ومراحلا وعهودا وأجيالا.

- لقد استطاع سعد الله أن يجمع بين حقلين معرفيين متداخلين متلازمين هما التاريخ والأدب تحت ما يعرف بالتأريخ الأدبي الذي يقوم على التجميع والتصنيف والترتيب، ورسم خطوط التطور، ووضع الحدود الفاصلة بين مراحله التي قد يحددها التحقيب السياسي أو التحقيب الفني (حسب النوع الأدبي).

- إن الممارسة التحقيقية لدى أبي القاسم سعد الله، باعتبارها إحدى إجراءات المنهج التاريخي، هي ظاهرة نقدية تستحق مزيدا من الدرس النقدي الواعي، من أجل الوقوف على منطلقات الرجل الفكرية ومرجعياته النقدية.

قائمة المراجع:

- ابن كثير، (1420هـ-1999م). تفسير القرآن العظيم (ط2). السعودية: دار طيبة.
- ابن منظور م. (1419هـ-1999م). لسان العرب (ط3). بيروت: دار إحياء التراث العربي.
- أحمد مكي ط. (1431هـ-2010م). الأدب المقارن أصوله وتطوره ومناهجه (ط1). القاهرة: دار العالم العربي.
- أحمد م. (2016م). مناهج الدراسات الأدبية الجامعية بالمغرب المنهج التاريخي أنموذجا (ط1). المغرب: مطبعة بني ازناسن.
- بروكلمان ك. تاريخ الأدب العربي (ط5). القاهرة: دار المعارف.
- بو حسن أ. (2003م). العرب وتاريخ الأدب نموذج كتاب الأغاني (ط1). المغرب: دار توبقال للنشر.
- سعد الله أ. (1998م). تاريخ الجزائر الثقافي 1500-1830 (ط1). بيروت: دار الغرب الإسلامي.
- سعد الله أ. (1982). منطلقات فكرية (ط2). ليبيا: الدار العربية للكتاب.
- سعد الله أ. (2005م). مسار قلم (ط1). بيروت: دار الغرب الاسلامي.
- سعد الله أ. (1984م). شاعر الجزائر محمد العيد آل خليفة (ط3). تونس: الدار العربية للكتاب.
- سعد الله أ. (1985م). دراسات في الأدب الجزائري الحديث. تونس: الدار التونسية للنشر للكتاب.
- سعد الله أ. (1988). أفكار جامحة. الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب.
- سعد الله أ. (2009م). تاريخ الجزائر الثقافي 1954-1962 (ط3). الجزائر: دار البصائر.
- سعيدوني ن. سعد الله أكلمة وفاء. الجزائر: البصائر الجديدة.
- عبيد م. (1435هـ-2014م، أبريل). النشاط الثوري لأبي القاسم سعد الله 1947-1960م. مجلة عصور الجديدة، عدد13.
- علوش س. (1405هـ-1985م). معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة (ط1). بيروت: دار الكتاب اللبناني.
- مفتاح م. (2010م). المفاهيم معالم نحو تأويل واقعي (ط2). المغرب: المركز الثقافي العربي.
- مندور م. (1996م). النقد المنهجي عند العرب ومنهج البحث في اللغة والأدب. القاهرة: دار نهضة مصر للطباعة والنشر.
- وزناجي م. (2008). حديث صريح مع أ،د سعد الله أ في الفكر والثقافة واللغة والتاريخ. الجزائر: منشورات الحبر.
- حسن ط. (2008م). مفهوم التاريخ الأدبي مجالات التوسع وآفاق التجديد (ط1). الرباط:
- دار أبي رقرق للطباعة والنشر.
- هنية ع (2016م، كانون الثاني-يناير). حول التحقيق التاريخي. مجلة أسطور، العدد3.